

الفصل الثامن

المحاولة العربية

في هذه الحياة المنتشرة والتدخل الأجنبي المتغلغل في البلاد ، والاستئثار بالسلطان من قبل غير أهله ، كانت تظهر في الفينة بعد الفينة حركات عربية تحاول إرجاع الحالة السابقة ولكن ذلك لم يجد نفعاً . فقد كان في شمال العراق في القرن الرابع الهجري والقرن العاشر الميلادي حكومة للحميدانيين في الموصل وفي حلب ، وكان بلاط سيف الدولة يومئذ يجمع العلماء ومجلس الأدباء والشعراء لا يماثله في ازدهار العلم إلا بلاط الرشيد أيام ازدهار ملكه . غير أن الظروف لم تسمح لهذا الأمير العربي أن يمد سلطانه ويقضى على هذا التغلغل الأجنبي الذي بعثته حركات الموالى . فقد كان يحمي ثغوره من هجمات الروم وكانت الحرب بينه وبينهم سجالات ، وطالما أوقع بهم وفرق صفوفهم وقد خلده المتنبي بقصائد لا تزال الآلىء في عقد الأدب العربي .

كان المتنبي يحرض القوم ويستحث أمثال هذا الأمير على إعادة المجد العربي فهو يرى أن أقاليم الخلافة قد مزقت أوصالها تلك المؤامرات وانفصل بعضها عن بعض وتولى أمورها ملوك تنزل بهم صفاتهم عن مصاف الملوك .

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أئمم ترعى بعبد كأنها غنم
وفي الفرات الأوسط من سهول الراقدين قامت دولة المزيديين ،

وكادت تستولى على جميع العراق ، اتخذت مدينة الحلة عاصمة لها وتقلب رئيس الأسرة مالك العرب ، ولو قدر النجاح لهذه الحركة لكان للتاريخ العربي صفحة أخرى غير هذه الصفحة وقد خلد الحريوى فى المقامة التاسعة والثلاثين اسم الأمير سيف الدولة ديبس بن يزيد الأسدى بمدح يدل على شعور الناس بالتحول وميل حكم الغرباء .

استولت هذه الأسرة على واسط وعلى البصرة وامتد حكمها زماناً قصيراً ، ولكن لم تستطع تثبيت قدمها فى أرجاء المملكة .

لقد أدرك العرب أن سر انهيار سلطانهم لم يكن فى الناحية السياسية فحسب . فأخذوا يتجهون إلى نواحي أخرى : إلى بعث جديد يعيد التراث القديم الصافى من شوائب البدع التى أدخلها المندسون فى صفوف الإسلام ورءوا فى الرجوع إلى ذلك الصفاء ابتداء عهد جديد يهيد إلى الأمة أمجادها الأولى التى بعثتها بطاح مكة والمدينة وفى الرجوع إلى تلك العقيدة الصافية إعادة قوة الأمة وسلطانها الزمنى الذى فقدته فانهارت بغداد وتبعها العالم العربى ، وكان طليعة هؤلاء المفكرين فقيه عربى نابغة هو ابن تيمية .

ابن تيمية وتلامذته

نجح خصوم الإسلام والعرب بما أودعوا هذه العقيدة من شوائب البدع والضلالة واستطاع أتباع مزدك والسبائية اليهودية ومن على شاكلتهم من أرباب العقائد الذين دخلوا فى الإسلام للسكيد به أن يبشوا عقائدهم ، ويدسوا ما يريدون ، وقد ذكرنا آنفاً أنهم اتخذوا السياسيين والشعراء والأدباء والعلماء ممن يدين بتلك العقائد والذين انتحلوا الإسلام لا للإسلام وإنما لهدمه وسائل لتنفيذ مقاصدهم ، وكان أشد هؤلاء كيداً فرق الباطنية وأتباع قرمط وغيرهم من الفرق المتقاربة مع مبادئهم والتى كانت امتداداً

لحركة أبي مسلم الخراساني والسبائية اليهودية . وظلت معاول هؤلاء الهدامين تعمل حتى انهار هذا الصرح الممرد العظيم ووهنت تلك القوة التي كانت تمد شباب العالم بالمرّة والشدة ، وتبعث فيه العدل والاخاء والمساواة ، فسهل على التأتار أن ينحدروا انحذار السيل لا يبقون ولا يذرون ، حتى بلغوا بغداد عاصمة الخلافة وموطن الثقافة والسلطان ، فأتوا عليها وأزالوا حضارتها من الوجود ومزقوا وهدموا وأحرقوا ومثلوا وقد نجا من هذه السكارثة من فر بدينه وبدنه وذل من بقي قتلاً وأسرّاً .

كان أثر الذين حاربوا عقيدة الإسلام بالغاً أشده حتى صارت بدعهم مألوفة تمارس وتدرس بل صارت أصولاً تتفرع منها فروع وافتن هؤلاء الهدامون في بث عقائدهم وتسهيلها على الناس وموافقتها لرغبة كل سامع لها فاستطاعوا أن يجلبوا العامة إليها فكثرت بذلك أتباعهم وازداد خطرهم وجعلوا يوجهون الناس للشر ويؤهلونهم للفوضى ومحاربة السلطان .

ويل أمة تفسد أصولها بالبدع الأجنبية عنها ، إنها تمسخ مسخاً دون أن تشعر بالمسوخ ، وتهون دون أن تحس بالهوان حتى يقيض الله لها من ينفخ الصور في أذنها فيبعثها بعثاً جديداً .

وهكذا فقد قويض الله لهذه الأمة عقلاً واضح العقيدة قوى الحججة نافذ الرأى في الفقيه الأديب العربي تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ابن عبد السلام بن عبد الله ابن محمد ابن تيمية الحراني العربي .

ولد هذا المصلح في يوم الإثنين في العاشر من ربيع الأول عام ٦٦١ هـ الموافق ٢٢ كانون الثاني عام ١٢٦٣ في أول النصف الثاني من القرن الثالث عشر .

فر أبوه به وبأسرته من حران إلى دمشق خوفاً من بربرية التأتار فحكف وهو غلام صغير على دراسة الفقه فحضر على أبيه كما حضر على

كثير من العلماء وأتم دراسته وهو في سن العشرين واقتعد مكان أبيه بعد وفاته وشرع يفسر للناس القرآن يوم الجمعة من كل أسبوع .

وحج إلى مكة عام ١٢٩٢ وجاء إلى القاهرة عام ١٢٩٩ ثم أخذ يتردد عليها في الفينة بعد الفينة على حسب ما تقتضيه ظروفه التي تحيط به .

كان ابن تيمية صافي العقيدة واضح الرأي وضوح الصحراء العربية لا تجد فيها دخلاً ولا شجراً متأشباً . وكان يصحب هذا الصفاء منطق مستقيم وفلسفة متوشجة بعلم الحوادث وأسبابها أخذها عن فلسفة اليونان والعرب ومزجها بما درسه من أصول التشريع والفقه الإسلامي وزاد على ذلك ما تفرد به في دراسة القرآن والحديث .

كان يغمر ابن تيمية شعور بالحزن عميق على ما وصلت إليه الأمة من الضلالة والهووان ، وعز عليه أن يرى عقيدة التوحيد تتأرجح بين الشك والوهم بما أصابها وانحدر إليها من مبادئ الباطنية وأفعال القرامطة وآراء مزدك وماني وابن سبأ ومن لف لفهم من الناقمين على الإيمان .

فإن الإشراف الإلهي الذي كان ركناً ركيناً في مبادئ الباطنية والذي فيه تشرق المعرفة على الأئمة فتسموا بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم ، كان سبباً لتأويل الشريعة حسب أهواء هذه الفرقة ووفق ميولها ، وإن تأليه البشر الذي ابتدعته السبائية وثبته الباطنية قد بعث فرقة الاتحادية بأوسع معانيها في الوجود ، وحسبنا أن نذكر بعضاً مما فصله ابن تيمية في رسالته : « الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم » .

قال ابن تيمية إن ما تضمنه هذا الكتاب وما شاكاه من الكلام فإنه كفر باطنياً وظاهراً وباطنه أقبح من ظاهره وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول وأهل الاتحاد وهم يسمون أنفسهم المحققين ، وهؤلاء نوعان : نوع يقول بذلك مطلقاً كما هو صاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله مثل ابن سبعين وابن الفارض والقونوي والششتري والتلمساني

وأمثالهم ممن يقول إن الوجود واحد ، ويقولون إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خالق أحدهما الآخر . بل يقولون : الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق ويقولون إن وجود الأصنام هو وجود الله ، وإن عباد الأصنام ما عبدوا شيئاً إلا الله ، ويقولون إن الخالق يوصف بجميع ما يوصف ؛ المخلوق من صفات النقص والذم .

ويقولون إن عباد العجل ما عبدوا إلا الله ، وإن موسى أنكر على هرون لكون هرون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى بن عمهم كان من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء ، بل يرونه عين كل شيء ، وإن فرعون كان صادقاً في قوله : « أنا ربكم الأعلى » بل هو عين الحق ، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص . ويقول أعظم محققهم : إن القرآن كله شرك لأنه فرق بين الرب والعبد وليس التوحيد إلا في كلامنا — فقيل له فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأم حراماً ؟ فقال الكل عندنا واحد ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

ويستمر بن تيمية في رده ويقول : « إن التلصصاني كان من أعظمهم كفراً وفسقاً وكان من أعرفهم لهذا المذهب وأخبرهم بحقيقته فأخرجه ذلك إلى الفعل » .

ويقول إنه كان يستحل المحرمات ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم يقرهم فيها على عقيدته الشريكية ، ويقول إن ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء وكان له من الكفر والسحر الذي يسمى السيمياء والموافقة للمسيحية والقرامطة والرافضة ما يناسب أصوله .

وهو يشبههم بالجهمية ، ويقول إن هؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون إن الله بذاته حال في كل مكان ، ولكن أهل وحدة الوجود حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية .

وأما النوع الثاني فهو قول من يقول بالحلول والاتحاد في معين كالحاكمية الذين يقولون بذلك في الحاكم ، والحلاجية الذين يقولون بذلك في الحلاج ، واليونسية الذين يقولون بذلك في يونس ، وأمثال هؤلاء من يقول بالوهمية البشر وبالحلول والاتحاد فيه ، ولا نجعل ذلك مطلقاً في كل شيء ومن هؤلاء من يقول بذلك في الدسوان والمردان أو بعض الملوك وغيرهم ، انتهى ما أخذناه من كلام ابن تيمية .

ويكفي للمرء أن ينظر نظرة عابرة إلى هذه الأمثلة ثم يرجع إلى ما أثبتناه في فصولنا السابقة ليرى كيف انحدرت هذه المبادئ في أصلاب الزمن تثقل في الأشخاص والنحل وتتطور حتى لبست ثوبها الأخير المهلهل الذي تهلمت به أخلاق الأمة وتقاليدها فأخذت تسبح في هذا الفساد المزدكي المتحلل من كل قيد والذي تستر بستار الدين ومعرفة الكشف عن الحقيقة فضل به الجهال الذين يحسنون الظن بأقوال أولئك فتأهوا وطفقوا يمشون في يهماء من الضلال والنفي يرتعون بما تشتهيهم لذاتهم وغرائزهم ثم ينسبون ذلك كله إلى وحدة الوجود .

ونشأ عن هذا النوع من التأليه تقديس البشر والأحجار ونصب الأصنام وعبادة النقوش فقد نقشت على الصخور آثار قدم زعم ناقشوها أنها قدم النبي (ص) ونقشت كف زعم الدجالون أنها كف الرسول (ص) وأخذوا يطوفون بها على البيوت يחדعون العامة يأخذون منهم الأموال ويدعون أن من نذر لها أو تبرك بها شفى وطفق من على شاكاة هؤلاء يبنون المشاهد والمساجد على قبر من القبور يزعم أحدهم أنه رأى في المنام أن هذا المكان مرقد لولي أو لرجل صالح وأنه شم عبيراً منتشراً من هذا المكان وأن هذه الرائحة ما هي إلا دلالة على صلاح صاحب هذا المكان وولايته ، ثم يشرعون يدعون الناس للتبرك به والتوسل إليه ، وليس من شك في أن هذه الوثنية يقصد بها صرف الناس عن التوحيد وعن

حج بيت الله اكتفاء يمثل هذه الزيارات ، ولقد مر بنا كيف خطف القرامطة الحجر الأسود من مكة ووضعوه عندهم ليضعوه عقيدة الناس في أول بيت وضع لهم .

لقد اطمأن كثير إلى هذه المبادئ وصارت أصولاً في عقائدهم يدافعون عنها ويحاربون من أجلها حتى لقد ساعد النصيرية التاتار على اغتيال الإسلام ، هال ابن تيمية فساد مجتمعه بهذه المبادئ الهدامة فنزل يدفع عن عقيدة التوحيد بقلبه وفه وسيفه وطفق . يحرر الرسائل في الرد على هؤلاء المبتدعة ويعظ الناس وحرض السلطان على مقاتلة النصيرية مع التاتار فنجح وكسر النصيرية شر كسرة وكم مرة نزل ابن تيمية يحمل فأسه يحطم الأصنام كما حطم ابن الوليد اللات والعزى . وكان عبدة الأصنام يفرون منه إشفافاً عليه وخوفاً أن يناله عقابها ، وكان يبتسم ضاحكاً منهم ويعجب لأمر هذه الأمة التي رفع التوحيد مكانها إلى السماء كيف انحدرت بالشرك تتمرغ على أقدام الأحجار تستنزل النصر من القبور بدل أن تطلبه من خالق الخلائق ، أراد ابن تيمية أن يهذب النفوس ويبعث فيها العزة والقوة ويربطها بالسماء فسكتب لهم رسالته في الرد على الاتحادية يدلل رده بالمعقول والمنقول ، ويكفي أن ننقل إليك ما جاء في أدلته المنقولة فإن العقل مع ابن تيمية والنوق ، إذ لا يعقل أن يحول في الذهن اتحاد خالق بمخلوق فإن تجرى عليه نواقص الحياة وزياداتها جميعها قال ابن تيمية مقتبساً من القرآن : لا ريب في أن الله رب العالمين ، رب السموات والأرضين وما بينهما ورب العرش العظيم رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ، ربكم ورب آبائكم الأولين ، رب الناس ملك الناس إله الناس . وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته وملكوته وخلقه ورزقه وهدايته ، ونصره وإحسانه ، وبره وتديره ، وصنعه ، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، لا يشغله سمع عن سمع ، لا تغلظه المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحين ، يبصر ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فهذا كله حق ، وهو لمحض توحيد الربوبية ، وهو مع هذا قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ومن هنا نرى ابن تيمية يؤكد على عقيدة التوحيد وينزه الإله عما يريد به الضالون من البشر . لأن الإله يجب أن يكون منزهاً عن هذه النواقص التي تحيط بالإنسان ، وأن الإنسان لا يمكن أن يقيس الإله بمقاييسه الصغيرة الضيقة . وكتب رسالة في زيارة القبور والاستنجاد بالموتى ، واعتمد في أدلته على ما جاء من الآيات في القرآن الكريم وما جاء في أحاديث النبوة ، قال تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، إلا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه مختلفون » .

وقال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، وقال « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين ، وقال « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » .

« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً » .

وقال تعالى : « ألحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونه أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً » .

وقال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » .

وقال : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد أتم مسلمون » .

وقال تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشوني » .

وقال : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني » .

وجاء في الحديث ، أن الصحابة كانوا في سفر وكانوا يرفعون أصواتهم بالكبير فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً بل تدعون سميعاً قريباً أقرب إليكم أو إلى أحدكم من عنق راحلته » .

لقد جاء الإسلام قوياً شديداً يملأ القلوب نوراً ويحرر النفوس من الذلة فخطم الأصنام وبعث في الناس العزة والكرامة وساواهم وجعلهم أخوة وارتفع بهم من ذلة الأرض إلى عزة السماء لكيلا يتمرغوا تحت قدم صنم ولا يسجدون للنصب ولا يخشون عبداً من عباد الله مهما كانت منزلته ، فالخشية لله وحده والرابطة به وحده أيضاً . وفي هذه الرابطة المقدسة تعزز النفوس وتسمو الكرامة وتبدو الحرية مجلوة ، وفي ظلال الحرية المجلوة يبدع الإنسان في عمله ويشق بنفسه ، وليس أحلى من الثقة بالنفس إذا كانت معتزة بعقيدة سامية . وهذه هي المثل العليا للأمم في تكوين الفرد والأسرة والمجتمع ، وإذا كان الفرد عزيزاً عزت الأسرة وإذا عزت الأسرة عز المجتمع وإذا كان المجتمع عزيزاً عزت الدولة ، وصارت مرهوبة الجانب وهذا ما كان يريده ابن تيمية لأمته في ذلك

الزمن الذي دلت به النفوس فأصبحت هذه الأمة نهياً مقسماً يقتسمها الطامعون بعد أن كانت عزيزة الجانب .

إن النفوس الضعيفة تتعلق بخيوط الغنكبوت وتتشبث بأضعف الوسائل وتتمسك بالأوهام ، فأراد ابن تيمية أن يرتفع بها من ساحة الأوهام إلى الحقائق ويبدد سحراً مظلمة غشيت عيونهم فذكرهم بعقيدتهم الغراء ، عقيدة التوحيد ، وجاءهم بآيات واضحات تحدد مكانة الإنسان بالنسبة لأخيه الإنسان وبالنسبة لخالقه .

إن التوحيد ميزة الأمم الراشدة العاقلة التي يصل بها منطقها إلى وجود قوة خارقة فوق الطبيعة وفوق الممكنات ، وفوق مقاييس البشر ، هذه القوة هي رب واحد قديم غنى عما سواه ، لا شريك له في الوجود ، وأن العباد مهما سميت منزلاتهم لن يصلوا إلى منزلة الربوبية ، ولن تصح عبادتهم والتوسل إليهم ، لأنهم عباد الله لا يضررون ولا ينفعون ، وإن الإنسان لن يسمو إلى منزلة ربه .

قال تعالى : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو » ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله . فالقوة في كشف الضر وإرادة الخير لن تكون لبشر ، وإنما تكون لله وحده ، ومن يلجأ إلى بشر في رأى ابن تيمية فقد أشرك ، ومن أشرك فقد ضل ، ومن ضل فقد ذل ، ومن يذل يسهل الهوان عليه ، وهكذا أصاب الأمة الإسلامية ذلك الضعف حين أملت الضعفاء واستكانت إلى الأصنام .

وناقش ابن تيمية أهل الفرق في ذات الله وصفاته ، فقال : « الأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رساله نفيًا وإثباتًا فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها اثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه

عن نفسه مع إثبات ما أثبتته من الصفات من غير الحاد لا في أسمائه ولا في آياته .

ثم قال : « وطريقتهم في ذلك تتضمن اثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات اثباتاً بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . ففي قوله ليس كمثله شيء رد للتشبيه والتمثيل وقوله وهو السميع البصير ، رد للإلحاد والتعطيل ، والله سبحانه بعث رسوله بإثبات مفصل ونفي مجمل ، فاثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى : « فاعبدوه واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً . »

وقال تعالى : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وقال تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . وقال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله » وقال تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، يديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » .

وقال تعالى : « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من أفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لسكرانون ، اصطفى البنات على البنين ، ما لكم ، كيف تحكمون ، أفلا تدكرون ، أم لكم سلطان مبین ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون ، سبحانه الله عما يصفون وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » .

وقال ابن تيمية ، وأما الإثبات المفصل ، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته كقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، بكاملها . وقوله : « قل هو الله أحد الله الصمد .. السورة » .

وقوله : وهو العليم الحكيم ، وهو العليم القدير ، وهو السميع البصير .
وهو العزيز الحكيم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الغفور الودود .
ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد .

هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم هو الذي
خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج
في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم
أيما كنتم والله بما تعملون بصير .

وقوله : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فاحبط
أعمالهم ، وقوله فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين
أعزة على الكافرين » .

وقوله رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه . وقوله :
« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها و غضب الله عليه ولعنه »
وقوله : « إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم
إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » ...

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي في أسماء الله تعالى
وصفاته ، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل ، وإثبات
وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل ، فهذه طريقة
الرسول صلوات الله عليه وسلامه أجمعين .

وقال ابن تيمية : وأما من زاعغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين
الذين أوتوا الكتاب ومن دخل في هؤلاء من الضائبة والمتفلسفة والجهمية
والقرامطة والباطنية ونحوهم فانهم على ضد ذلك ، يصفون بالصفات
السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند
التحصيل ، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان
فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل ، فإنهم يمثلونه بالممتنعات

والمعدومات ، والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات ، فغلّتهم يسلبون عنه النقيضين ، فيقولون لا موجود ولا معدوم ولا حى ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شهبوه بالموجودات وإذا وصفوه بالنفي شهبوه بالمعدومات فسلبوا النقيضين ، وهذا يمتنع فى بداهة العقول ، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسل ، فوقعوا فى شر مما فروا منه ، فإنهم شهبوه بالممتنعات إذ سلب النقيضين كجمع النقيضين كلاهما من الممتنعات وقد علم من الاضطرار أن الوجود لا بد له من موجد واجب بذاته غنى عما سواه قديم أزلى ، لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلاً عن الوجوب أو الوجود أو القدم ، وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلب والإضافات ، دون صفات الإثبات ، وجعلوه هو الوجود المطابق بشرط الإطلاق وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا فى الذهن ، لا فيما خرج عنه من الموجودات ، فجعلوا الصفة هى الموصوف ، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجعلوا هذه الصفة هى الأخرى ، فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشية جحداً للعلوم الضروريات ، وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، فأثبتوا لله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات ، ومنهم من قال عليم بلا علم ، قدير بلا قدرة ، سميع بصير ، بلا سميع ولا بصر . فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات ، والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول المذكور فى غير هؤلاء الكلمات .

وهؤلاء جميعهم يفرون من شىء فيقعون فى نظيره وفى شر منه مع ما يلزمهم من التحريف والتعطيل ، ولو أمعنوا النظر لسوا بين المتماثلات

وفرقو بين المختلفات كما تقتضيه المعقولات ولكانوا من الذين أوتوا العلم الذين يرون أنما أنزل إلى الرسول هو الحق من ربه ويهدي إلى صراط العزيز الحميد . ولسكنهم من أهل الجبهولات المشبهة بالمعقولات يسفسطون في العقلیات ويقرمطون في السمعیات ، وذلك أنه قد علم بضرورة العقل أنه لابد من موجود قديم غنى عما سواه إذ نحن نشاهد حدوث المحدثات كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع وقد علم بالاضطرار أن المحدث لابد له من محدث والممكن لابد له من موجد كما قال تعالى : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » .

فإذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقاً خلقهم .

يتبين من هذه الأمثلة التي اقتبسناها من الرسالة التدمرية لابن تيمية أن هناك صراعاً عنيفاً في الآراء بينه وبين القرامطة الباطنية ومن اشتق منهم والفلاسفة والمعتزلة في بعض آرائهم ولقد أوضح ابن تيمية بعض ما جاءوا به وأورد رأيه .

وصفوة ما جاء في آرائه في هذا الباب : أن ما ورد في القرآن الكريم من الأسماء والصفات في ذات الله وصفاته مقرر ثابت لا ينكر ولكنها لا تخضع لمقايستنا نحن البشر ، فله استواء معلوم وله سمع ليس كسمعنا وبصر ليس كبصرنا وقدرة لا تشبه قدرتنا ، ومقتة وغضبه وحبه وانتقامه ورضاه أمور على غير ما هو معروف بيننا ، فهو قديم غنى عن سواه ، وأن الضرورة تقتضى ذلك وتقتضى هذه القاعدة المنطقية بمقدماتها ونتائجها ، وهو : أن الممكن لابد له من موجد ، والله واجب الوجود هو موجد هذا الكون وإذا سمي الله نفسه سمياً بصيراً في قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماء يعظكم به إن الله كان سمياً بصيراً ، وسمى بعض عباده سمياً بصيراً في

قوله : إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، فإنه ليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، كذلك ليس المتكبر كالمتكبر والجبار كالجبار في الآيات التي سمي الله نفسه بذلك وسمى عباده بها .

لم يوجه ابن تيمية إصلاحه إلى العقيدة فقط بل اتجه إلى إصلاح اجتماعي خطير إلى مكانة المرأة في بيتها فاختلف مع علماء عصره في شأن الطلاق إذا كان يميناً وذلك إذا قال الرجل : « الطلاق يلزمي لأفعلن كذا أو لا أفعل كذا فيحلف به على حض لنفسه أو لغيره أو تصديق خبر أو نفيه . فإن ابن تيمية يجعله من قبيل الأيمان التي لا تعقد بالله ولا لله وإنما تعقد بمخلوق أو لمخلوق مثل أن يحلف بالطواغيت أو بأبيه أو السكعبة أو غير ذلك فهذه يمين غير محترمة فلا تنعقد ولا كفارة بالحنث فيها باتفاق العلماء (١) .

ويستدل على ذلك بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية ولا يجعلها تدخل في أيمان المسلمين لقوله صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد أشرك) وقد اشتهد الخلف بينه وبين علماء عصره حتى طلبوا من السلطان أن يأمر بمنعه من الافتاء بمثل هذه المسائل ، ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه بالسجن في أغسطس عام ١٩٢٠ وسجن في قلعة دمشق ولبث في السجن خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً .

ولم ينس ابن تيمية في إصلاحاته وصيحاته سياسة الملك فكتب رسالته السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، وجعل الإمارة قوام الأمة وواجباً من واجبات الدين لا يقوم إلا بها ، لأن المجتمع يقتضي ذلك في رأيه ، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بالقوة والإمارة ، ولذلك قيل إن السلطان ظل الله في الأرض كما قيل : « سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان » .

ويرى ابن تيمية أن الإمارة دين وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لا بتضاء الرياسة أو المال بها .

وينكر على الإمارة الاستبداد واحتيجان السلطان والمال ، وينذر بما أذن الله به عباده في قوله : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق » وقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

ويعنى بذلك رؤساء الدول الذين يستبدون بالملك ويفسدون في الأرض ويقول إنهم شرار الخلق ، قال تعالى : « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

ويجب الإطاعة من الرعية والمشورة من الراعي .
قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » .
وقال تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وما رزقناهم ينفقون » .

وأولو الأمر الذين ذكرهم فيما مر صنفان عنده : الأمراء والعلماء

وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس ، فعلى كل منهم أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ورسوله واتباع كتاب الله ، ومتى أمكن في الحوادث المشكلة معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب ، وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب ، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى عليه ودينه .

ويفتح ابن تيمية هذه الرسالة بأداء الأمانات ويقسمها قسمين يدبر بأحدهما الولاية والثاني الأمانات من الأموال ، ويبينها بالحديث : « من ولي من أمر المؤمنين شيئاً وهو يجد من هو أصلح المسلمين منه فقد خان الله ورسوله » .

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين » . وبذلك يحارب ابن تيمية المحسوبية ، ولا يريد للولاية إلا الكفو القدير المستحق للولاية الذى ينوب عن الخليفة أو السلطان فى الأمصار لكيلا يستذلوا الناس ولا يحكموا بالعدل بينهم . والولاية كما قدم عنده أمانة بدليل قوله تعالى : « يأيا الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وينصح ابن تيمية أولى الأمر أن يختاروا الأمثل فالأمثل فى كل منصب بحسبه ، وإذا فعلوا ذلك بهد التحرى والتدقيق فقد أدوا الإمارة حقها وقاموا بالواجب .

ويستمر ابن تيمية فى هذه الرسالة ، يفصل واجبات الإمارة ، وواجبات الولاية ، وواجبات الرعية حتى يستوفى الحاجة التى كانت أيامه تحتاج إليها ، ويفصل بعد ذلك الحدود والحقوق وصلات الناس بإمامهم وخالقهم وبأمشاهم من الناس يستمد ذلك من القرآن الكريم والحديث وأقوال السلف الصالح . وموجز القول : ما ترك هذا العربى المصلح باباً

من أبواب الفساد المنتشر في أيامه إلا أوصده ووقف قلبه ولسانه وسيفه للخلاص منه .

كانت التهم تكال له جزافاً وكان حساده يؤلبون عليه السلطان وولاية الأمور في كل حين ، وكان السجن والحرمان من بعض وظائفه وتقيد حريته ومنعه من الكلام جزء هذه التهم ، لقد اتهم بمشايعة مذهب التجسيم ظلماً فحكم عليه بأن يلقى هو وأخوه في الجب بقلعة الجبل في القاهرة فبقي فيه سنة ونصف سنة وخرج منه عام ١٣٠٨ م وبعد أيام قلائل من خروجه اعتقل مرة أخرى ، وحبس في برج الإسكندرية فلبث فيه ثمانية أشهر فلما أدخل سبيله عاد إلى القاهرة فعين مدرساً في مدرسة أسسها السلطان ناصر وقد امتنع عن الفتيا للسلطان بما يجيز له الانتقام من أعدائه ، وكيف يفعل ذلك ابن تيمية وهو حر أبي ، وفي أغسطس عام ١٣١٨ منع بأمر من السلطان أن يفتي في مسألة الحلف بالطلاق ، ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه في أغسطس عام ١٣٢٠ بالسجن في قلعة دمشق وأفرج عنه بعد أن لبث فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً بأمر من السلطان ثم أعيد إلى السجن عام ١٣٢٦ بعد أن ظفر أعداؤه بفتواه في مسألة شد الرحال إلى القبور التي كان أصدرها عام ١٣١٠ وقد أخلت له في هذه المرة غرفة كان يخدمه فيها أخوه . وفيها أقبل على تفسير القرآن وكتابة الرسائل للرد على الخصوم وكتابة المؤلفات حول ما حبس من أجله ، فلما علم خصومه خبر هذه المؤلفات ، وشوا به فجرد من كتبه وأوراقه ومداده ، فكانت صدمة شديدة لم تخففها كثرة الصلاة وقراءة القرآن فرض عشرين يوماً وتوفي في الليلة الثانية والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٧٢٨ الموافق ٢٦ — ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٢٨ .

وقال الذهبي : وفي هذه السنة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة هـ في ليلة الثلثين وعشرين من شعبان مات الشيخ الإمام العلامة الحافظ الزاهد

القدوة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن المفدى شهاب الدين عبد الحلیم ابن شيخ الإسلام محمد الدين أبی البركات عبد السلام بن عبد الله ابن أبی القاسم بن تیمیة الحرانی ثم الدمشقی معتقلاً بالقلعة وغسل وكفن فأخرج وقد اجتمع خلق كثير بالطرق وامتلاً الجامع والكلاسة والحوانیت کیوم الجمعة أو أكثر وصلى علیه أولاً بالقلعة الشيخ محمد بن تمام ، ثم بجامع دمشق بعد الظهر واشتد الزحام ، وألقى الناس علیه عمامتهم ومنادیهم للتبرک وارتص الناس تحت النعش وشيعه الخلائق فی جوار من أبواب البلد ومعظمهم كان من باب الفرج مع الجنائز وعظم الأمر بسوق الخیل ، وتقدم فی الصلاة علیه هناك أخوه وانتشر الناس والنسوان علی الأسطحة وإلى قبلى مقابر الصوفیة فدفن إلى جانب أخیه الشيخ عبد الله وحزر النساء بخمسة عشر ألفاً ، وأما الرجال فحزروا بستین ألفاً وأكثر إلى مائتی ألف وأكثر البكاء حوله وختمت له عدة ختم ، وتردد الناس إلى زیارة قبره أياماً ورویت له منامات صالحة ورثاء جماعة ، وكان مولده بجران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستین وستمائة ، وطلب الحديث وقرأ الكثير ، ووجدت بخط الشيخ كمال الدين بن الزمکانی أنه اجتمعت فيه شروط الاجتهاد علی وجهها ، وكان آية فی الذكاء وسرعة الإدلاء بجرأ فی النقليات ، رأساً فی معرفة الکتاب والسنة ، هو فی زمانه فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء وأمرأ بالمعروف ونهياً عن المنکر وكثرة التضيف ، وما رأت عینای مثله ولا رأى مثل نفسه فی العلم . ترك ابن تیمیة الحياة الدنيا وهو مؤمن أن تعالیه ستأخذ مكانها فی قلوب الناس ، ولكنه لم یدر أن الناس یجتمعون علی نعشه یرمون عمامتهم ومنادیهم للتبرک به یتخذون قبره مزاراً ، وتروی عنه المنامات الصالحة وغير ذلك من الأمور التي كان یحاربها فی حياته . لقد كان هذا الشيخ عظيماً فی أعین الناس ، عظيماً برأیه وشجاعته وقوة إيمانه عظيماً بثقته بالله الواحد القهار .

لقد حدث المؤرخون أن ابن تيمية صنف خمسمائة مؤلف ولكن
والأسف لم يصل إلينا إلا نيف وستون كتاباً انتشر القليل منها .
وتكاد تكون هذه المؤلفات دفاعاً عن وحدة العقيدة وتبياناً لشأن
الإسلام في قلوب حملته وفي هذا العدد الضخم من المؤلفات دلالة على
جهد هذا العلامة الكبير والمصلح العظيم ودلالة على مبلغ حرصه على
مكانة هذه الأمة التي تقسمتها الأهواء وتنازعها ميول الموالى واتجاهاتهم
لإضعاف شوكتها والقضاء عليها . ولا شك في أن كثيراً من مؤلفاته التي
فقدت إنما فقدت عن طريق الخصوم الذين سعوا في إتلافها وإخفائها .
أخذ صوت هذا العالم الجليل يدوى في أنحاء الجزيرة العربية وفي
البلاد التي يظللها القرآن فتمكن من قلوب المؤمنين وأثر تأثيراً كبيراً .
وقد خلفه تلميذه ابن القيم الجوزية وسار على نهجه فكتب وألف وظلت
تعاليمهما معاً تنتقل في أصلاب الحياة من طور إلى طور ، والزمن شحيح
لا يلد المصلحين والعباقرة إلا بمقدار ، وإذا انفلت من حضنه مصلح
تنكر له وأدار له ظهر المجن وهياً الخصوم . وما كان ابن تيمية يدرى
أن يهيء الله لتعاليمه رجلاً من قلب الصحراء يدرسها فيمتهدى بهديها وينسج
على منوالها فلقد أتاح لتعاليمه محمد بن عبد الوهاب ، ولد ابن عبد الوهاب
عام ١١١٥ هـ ودرج في بلدة صغيرة تسمى عينية من أعمال نجد وتعلم دروسه
على شيوخ الحنابلة ، ومنها ذهب إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
ليكمل علومه ، ولما عض على قارحة السكال حمل عصا التسيار وشرع يطوف
في أرجاء العالم الإسلامي فوصل البصرة وأقام بها وتركها إلى بغداد وأقام
بها ، وكان مجموع الإقامتين بالعراق تسع سنين ، ثم ذهب إلى كردستان ،
وإلى همدان وأصفهان فألقى عصا التسيار فدرس فلسفة الأشراق
والتصوف ، وذهب إلى قم ومنها عاد إلى بلاده ، وانزوى في داره مدة
من الزمن وخرج بعد ذلك إلى الناس يدعوهم يبشرهم وينذرهم ويستهنىء

بأفعالهم وأعمالهم الوثنية ، ويدعوهم إلى التوحيد وإلى كلمة لا إله إلا الله يستدل بالقرآن والحديث ويشرح أدلته شرحاً وافياً ، يحاول فيه صدق الحجة والإقناع . ولكنك لا تبصر في ثنايا شرحه وحججه ما كنت تراه في كتب ابن تيمية ، مما يدل على أن ثقافة ابن عبد الوهاب لم تصل إلى ذلك الأفق الواسع الذي كان ينبسط أمام ابن تيمية ، ومع ذلك فقد أدرك سر انهيار هذه الأمة . ووجد مفتاح السر في تبديل العقيدة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . لقد وجد التوحيد تحيط به الأشواك والعوسج وتأشب حوله أدغال لا يستطيع أحد أن ينفذ إليه إلا بسلطان . وأن المانوية والمزدكية والباطنية والقرامطة والسبائية تركت آثاراً امتد بها الزمن وطال حتى تمكنت من النفوس واستقرت في قراراتها وأصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها ورأى الأوثان والأصنام التي حطمتها عقيدة التوحيد عادت ثانية فصعد بقوله تعالى « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . وقوله تعالى : « قل تعالوا أتبع ما أحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً » . « فلا تدعوا مع الله أحداً » . « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . »

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ، . قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين !

بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسئون ما تشركون .
وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه ، منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي
ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً قل تمتع بكفرك قليلاً إنك
من أصحاب النار .

بمثل هذه الآيات البينات سلك ابن عبد الوهاب سبيل أستاذه ابن تيمية
في توجيه الناس إلى عقيدة التوحيد التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى النهوض بأنفسهم من حضيض الذلة إلى العزة والقوة إلى الإيمان
الصافي إلى الارتباط بالله وحده . وفي هذه الفكرة وحدها معنى السمو
والرفعة ومعنى الاعتصام بحبل متين لا ينقطع والنفس التي ترتبط بالله
لا تذلل ولا تخضع لأحد ، ولا ترجد نفس أذل من النفس التي تتمرغ
أمام صنم ضخم منحوت من حجارة أو شجرة نابتة ، ولا توجد نفس
أذل من النفس التي تتخذ أحبارها ورهبانها أرباباً من دون الله أو تتخذ
أنداداً تحبهم كحبها لله ساء ابن عبد الوهاب هذه الذلة ورأى الناس قد
علقوا آمالهم وأعمالهم على غير الله واطمأنوا إلى المخلوقات يستشفون بها
من أمراضهم وعلمهم ويجعلونها وسائل لأعمالهم وأرزاقهم وطفق الناس في
البلادياً كل بعضهم بعضاً لفساد العقيدة وضعف الإيمان فلم يربدا من أن يهزم
هذا ولم يجد شيئاً يبعث فيهم الحياة الصالحة والحياة العزيزة إلا الرجوع
إلى عقيدة التوحيد إلى الإيمان بالله إلى المبادئ التي جاء بها الإسلام
في أوله . ووجد العودة إلى هذه الفكرة وحدها كفيلاً برجوع القوة
والعزة التي كانت للإسلام في سالف عهده ، وللمؤمن المخلص الذي كان
لا يهرب أحداً إلا الله في تغير المنكر والدعوة إلى الحق .

فأرذى بدعوته وحورب في بلدته . ثم هجرها إلى الدرعية حيث وجد
القوة تعين الدعوة والسيوف يحرس مبادئه . فقويت شوكته وانتشرت
دعوته . وسار في عرض بلاده يعلم ويصلح حتى اكتمل له العدد والعدة

ومشى إلى مكة والمدينة فاستولى عليهما . فأصبحت دعوته في هذا الاستيلاء
بنكسة قوية . فقد اهتز العالم الإسلامي واهتز عرش الخلافة في الأستانة
لأمرين اثنين أولهما أن أتباعه هدموا القباب وأزالوا ما كان على قبر
الرسول صلى الله عليه وسلم من الحلي والزينة فانتفض المسلمون في مشارق
الأرض ومغارها لهذه الجراءة ورموا أصحاب هذه الحركة بالزندقة
واتهموهم بالكفر .

وثانيهما خوف الخلافة في الأستانة من هذه الحركة التي تؤذن بقيام
دولة عربية تناوى الخلافة التركية .

وعلى ذينك نبط عدا شديدا لها وأخذت السلطنة التركية تعمل
لقبرها في مكانها قبل أن تتسع ، فأحكمت الدعاية ضدها وشرعت تعد
العدة لمقاومتها . فلم ير السلطان محمود بدا من الاستنجد بعامله على مصر
محمد علي باشا أن يسير الجند للقضاء عليها في مهبها . سحب هذا الإذن
دعاية واسعة النطاق قام بها علماء المسلمين فألفوا الكتب ووضعوا
الرسائل ونشروها بين الناس يحذرونهم وينذرونهم من البلاء المؤكد الذي
سيصيب الإسلام إذا نجحت دعوة ابن عبد الوهاب .

جهز محمد علي جنده بإمرة ولده طوسون وكتب إلى الشريف غالب
شريف مكة يعلمه إعداد هذه الحملة ، وعلم إتياع ابن عبد الوهاب ما عزم
عليه عامل مصر فتمعنوا له ، ولما التقى الجمعان اهزم جند طوسون تاركين
وراءهم المؤن والذخائر ، ثم جاء طوسون المدد من أبيه فأعاد الكرة على
جند ابن عبد الوهاب وهزمهم واستعاد المدينة ومكة .

وفي صيف ١٨١٢ م أعاد إتياع ابن عبد الوهاب الكرة على جند
طوسون فاستولوا على مكة وكادوا يأخذون المدينة ، فبلغ الخبر محمد علي
فسار بنفسه بجند لجب عام ١٨١٣ ونزل جدة وحدث أن مات قائد الوهابيين
في درعية عام ١٨١٤ فاهارت قواهم ولم يصمدوا لجنود محمد علي وسار

طوسون إلى نجد ، ثم اضطرتة قلة المؤن إلى الرجوع عن عاصمتها ، وعاد كذلك محمد علي بعد أن فتح طريق الحج للحجاج ، ثم عاد طوسون ولم يلبث قليلا حتى توفي .

وبعد أن استقر محمد علي في ولايته خشي أن تعود الوهابيين قوتهم تارة أخرى فكتب إلى عاهلهم عبد الله أن يأتي إليه ومعه جميع الأموال التي أخذها جنده من السكبة فاعتذر عن المجيء وأخبر أن الأموال قد ذهبت إلى أيدي الناس أيام أبيه .

فهدده محمد علي وجهاز عليه حملة بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، فأوغل هذا في بلاد الحجاز ونجد وقبض على عبد الله وأرسله إلى أبيه في القاهرة . ومن ثم أرسلوه إلى الأستانة فطاقوا به ثلاثة أيام في شوارعها ثم قتلوه . وبهذه الحملة قضى على الحركة السياسية نهائياً وخلع السلطان على إبراهيم باشا خلع الشرف وعهد إليه بالولاية على مكة وأنعم على محمد علي بلقب « خان » مكافأة له على إخلاصه وشجاعته في وأد هذه الحركة العربية في مهبها . وإذا كانت هذه الحركة قد أخذت ، فإن أفكار ابن تيمية لم تلتها واستمرت تفتق أذهان النباه من طلاب العلم والإصلاح ، واعتنقها كثيرون ممن يرون في عودة التوحيد وخلاص العقيدة من الشرك عزة ومنعة .

وكان من هؤلاء الشوكاني أخذ تعاليم ابن تيمية ودرسها وشرح بعضها وعلق عليها وطفق يحارب البدع في بلاد اليمن فثارت عليه حرب شعواء ورموه بالزندقة والخروج على العقائد ذلك لأنه ندد بالناس الذين يرون النفع والضرر منوطين بالمشاهد وهو يرى أن الله وحده هو النافع والضرار ، فتصدى له العلماء في صنعاء ونازلوه بالجدل والمرأه فصمد لهم ودافع دفاعا مجيدا عن عقيدة المسلمين في كتابه « نيل الأوطار » الذي شرح به كتاب ابن تيمية « منتقى الأخبار » .

وأخذ عن ابن تيمية وعن ابن عبد الوهاب كثير من فظهر المصلحون في الهند والعراق وبلاد المغرب يبشرون ببإدئ التوحيد ويدعون الناس إلى نبذ البدع والخرافات والتمسك بأصول الدين الصحيحة حباً بعزة الإسلام وخلاصه من شوائب البدع ولم تقتصر هذه الحركة الإصلاحية على بلاد العرب بل طفرت إلى الهند ونشأت حركة خطيرة اتخذت سبيل السياسة سبيلاً لها مع الوعظ والإرشاد وأخذت تهدد قوة المستعمر ولكن هذه القوة تصدت لها فأخضعها وأمنت شرها .

جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر استقبل العالم الإسلامى باعتماداً ومبدعاً هو السيد جمال الدين الأفغانى ، ولد فى عام ١٢٥٤هـ ، ١٨٣٩م وتوفى عام ١٣١٢هـ ، ١٨٩٧م من بيت فى الذروة من قریش ، فهو ينمى إلى السيد على الترمذى المحدث المشهور ، ويرتفع بهذا النسب صعوداً حتى يصل إلى الحسين بن على رضى الله عنه . ودرج بين عشيرة قوية الجانب محترمة الأرومة يجالها الأفغانيون لصلة النسب برسول الله صلى الله عليه وسلم ويهابونها لكثرتها وشدة شكيمتها ، وكانت لها سيادة على قسم من أراضى الأفغان ظلت تستقل فى الحكم بها إلى أن سلب الإمارة منها دوست محمد خان ، فذهب والد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل ، أخذوه أبوه بالعلم والأدب ، فدرس العربية والتاريخ وعلوم الشريعة فى التفسير والحديث ، والفقه وأصول الفقه والكلام والمنطق والسياسة ودرس الرياضيات : الحساب والهندسة والجبر ، وهىئة الأفلاك ، ونظريات الطب والتشريح وبعد أن اكتمل شبابه أخذ يطوف فى العالم ، فحذق العربية والفارسية والتركية والفرنسية وعرف طرفاً من الإنكليزية والروسية .

في هذه المعرفة والتجارب تكونت هذه الشخصية الجبارة ، ولقد ظهرت بوادرها في براعة موقفه من اختلاف الأسرة الحاكمة في الأفغان وعذلت ثقة محمد أعظم خان به فأحله محل الوزير الأول يلجأ إليه في عظام الأمور وحل المشكلات . وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير جمال الدين لولا انشقاق حدث في صفوف الأسرة أدى إلى هزيمة أعظم ، وبقي جمال لم تأسس يد سوء لقوة العشيرة وهيبته ، وبداله أن يسافر إلى الهند ، فعز على حكومة الهند أن تراه يجول في الهند وحده حراً . فأرادت أن تحد من ذلك فحددت له مكاناً ينزل فيه ومع هذا فقد استقبل على الحدود استقبالا منقطع النظير - وأخذت الوفود تفد عليه . فوفد في اليوم الأول عشرات من المعجبين به . ثم صارت العشرات مئات حتى صار المستفيدون من فضله يسعون إليه بالجمهير الجمهرة ينصتون إلى أقواله ودروسه فارتجت أقطار الهند وهرع أكابر العلماء والراجات ومن بين هؤلاء من لا يستطيع الحكومة منعه من الاجتماع بجمال الدين وعرفت الحكومة آراءه وما يبثه في جماعات الأمة ، فقصرت الحكومة الإقامة على ماتم منها وطلبت منه أن يغادر الهند حالا ، فهاجت الجمع وماجت من هذا الأمر ووقف جمال الدين بينهم خطيباً وقال : « ياهل الهند ، وعزة الحق لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذباباً لأصم طنينكم آذان بريطانيا العظمى ولجعل في أذن كبيرها غلاستون وقرأ » « ولو انقلبت ملايينكم سلاحف وخضتم البحر وأحطتم بجزر بريطانيا لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحراراً » .

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع ، فقال لهم : « اعلّموا أن البكاء للنساء ، ولم يأت السلطان محمود الغزنوي الهند باكياً بل أتى شاكياً سلاحه ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بشعر باسم » .

هز نفوس الهنود وأيقظها من رقادها ، وارتعدت فرائص المستعمر
فرقا من هذه الظاهرة العجيبة في أقوال هذه الشخصية الجبارة فلم تتركها
في الهند إلا يوماً واحداً بعد هذه الخطبة ، سار جمال الدين متجهاً إلى
الآستانة إلى مركز الخلافة الإسلامية لعله يجد فيها أرضاً خصبة ينمو بها
زرعه ، فلما رآه الصدر الأعظم عرف فضله وأنزله نزل السكراة ، وأجمعت
قلوب الأمراء والوزراء على حبه ، وتناقلوا المدح والثناء على علمه وأدبه
فبعين عضواً في مجلس المعارف ورأى آراء لم تعجب رفاقه في هذا المجلس
ومنهم شيخ الإسلام خاصة . وهو الذي حفظها حتى وجد فرصة فأوقع
فيه وادعى عليه باطلاً من القول وزوراً وظل يلاحقه حتى صار باطل
شيخ حقاً على جمال الدين . فاضطر إلى ترك الآستانة ، بعد أن أنب ونبه
وأذهر وأوضح : أن الأمة هي مصدر القوة ، ومصدر الحكم ، وإرادة
الشعب الحر هي القانون المتبع للشعب ، والقانون الذي يجب على كل
حاكم أن يكون خادماً له وأميناً ، وكل شعب تلعب به الأهواء ويتفرق
شيعة وأحزاباً وتستحكم في أفرادها محبة الذات والأنانية فيتجرون باسم
الأمة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا
بلغة من العيش ، مثل هذا الشعب كمثل الأنعام السائمة أو أضل سبيلاً ،
ومثل هذا الشعب تصدق عليه قاعدة جور ، أوجدها المستبدون وهي
القول السابق : « مشيئة الملك قانون المملوك » (١) .

خرج جمال الدين من الآستانة فجاء مصر تتقدمه كوكبة من المديح
والثناء ووصلها في أول محرم الحرام ١٢٨٨ هـ و ٢٢ آذار ١٨٧١ فاستقبله
رياض باشا فأكرمه ونعمه ، وصار بيت جمال الدين مثابة يفد إليه طلاب
العلم ، وشرع يعلم ويوجه ، وفي كل يوم يعظم قدره في نفوس طلابه
حتى ملأت سمعته سمع العالم وكان لشخصيته وعبقريته المبدعة أثر كبير

في تكوين الشخصيات وتنشيط العقول ، وحل عقد الأوهام من الأحلام ،
حمل طلابه على التفكير والكتابة فنشطوا لما أراد ، وبرعوا وتقدموا
في مضمار الحياة ، فكان تقدم فن الكتابة من إبداعه والتفكير الحر من
خلقه وإيجاده .

خلق في مصر جواً تسبج فيه كلمات عن الحرية والاستقلال والتكوين
والإنشاء والإدارة والشعب والشورى والحاكم ، فدار في أذهان الإنكليز
أن هذا الرجل سوف ييقظ الرقود وينبه الغافلين وزينوا للخديوى
أن يخرجهم من مصر ، فاتخذ من مناقشته في حكم الشعب وسيلة وحفظها
له حتى تهيأت الفرصة فأخرج من البلاد .

رأى جمال أن يذهب إلى الهند ، ولما وصل إلى السويس جاءه قنصل
إيران وبعض التجار وجماعة من تلامذته يحمل كل منهم مقداراً من المال
ولما عرضوه عليه أجابهم أنهم إلى هذا المال أخوج ، فإن الليث لا يعدم
فريسته حيثما ذهب . . وصل حيدر آباد الدكن واتخذها مقراً ، ثم حدد
له المقر أثناء ثورة عرابي فلما انتهت هذه الثورة سمح له بالذهاب حيث
يشاء . فقصده جمال الدين أوربا ووصل إلى لندن فأقام فيها مدة ثم سافر
إلى باريس فاستدعى صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده وأخرجاً معاً جريدة
« العروة الوثقى » ، لسان حال جمعية العروة الوثقى التي تألفت من خيار
القوم ، وكادت هذه الجريدة تفتح آفاق العالم الإسلامي في الهند ومصر
والبلاد العربية والإسلامية الأخرى لولا كيد المستعمرين الذين وقفوا
لها بالمرصاد ، فتعنت من دخول الهند ومصر ، وقد كتبت الجريدة بعد
هذا المنع ما جاء فيه : « نلتبس من أبناء الأم الشرقية أن يلقوا سلاح
التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت
أفواهاها لالتهاهم ، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد
الآمن من طروق الناهب » .

ولما ظهرت حركة المهدي في السودان كتب جمال الدين يحذر الإنكليز
عاجبة سوء فعلهم ، وثابر على الكتابة يعدد خطيئاتهم ويفند حجج
وزرائهم ، فاضطروا أن يرسلوا إليه يستدعونه ، فلما قدم لندن أثنى
عليه اللورد سالسبوري وقال له : « إن بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن
نقدر رأيك قدره ، ويجب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء
على قدر ما تسمح به ظروفنا ، لذلك رأينا أن نرسلك إلى السودان سلطاناً
عليه لتستأصل جذور الفتنة وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا » .

فأجابه جمال الدين : تكليف غريب وسفه في السياسة ما بعده سفه
أسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك ، هل تملكون السودان حتى تريدوا
أن تبعثوا إليه سلطان ؟ .

أخذ جمال الدين يحث الناس على تفهم القرآن والتعن بمعانيه ومقاصده
وحضهم على الترفع عن التقليد وقال : إن من يفهم القرآن فهماً صحيحاً
ويعرف صحيح الحديث ويشقف ثقافة تعينه على صحة الحكم بمنطق واضح
يتمكن به من الاستنتاج فذلك هو المجتهد الذي يعرف الأحكام . ثم قال
« ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد وقال ،
إنني لا أرتاب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ، ومالك والشافعي
وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون
لكل قضية حكماً من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم وتعمقهم ازدادوا
فهماً وتدقيقاً ، لقد اجتهدوا ، وأحسنوا جزاهم الله عن الأمة خيراً ،
ولكن لا يصح أن تعتقد أنهم أحاطوا بأسرار القرآن كلها ، أو تمكنوا
من تدوينها بكتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر
وتحقيقهم واجتهادهم إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم
والحديث الصحيح من السنن والتوضيح إلا كقطرة من بحر أو ثمانية من دهر
والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وعلمهم مالم يكونوا يعلمون » .

كان جمال الدين يحد في القرآن عاصماً للأهم الإسلامية من الفرقة والخور والضعف وكان يرى فيه بشاً للمعزة والمنعة والشجاعة ، ويرى الجبن عاراً ما بعده عار ويبسط القول فيه ويقول : « ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الأذنياء لديثة الارتشاء ؟ أليس هو الجبن ؟ إن أبناء الملة الإسلامية ينبغي أن يكونوا بمقتضى أصول دينهم أبعده الناس عن هذه الصفة المهيينة فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وإنهم بما يعملونه إنما يتقنون رضاه ، ويعلم من في القرآن هدايته أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتنح الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب . . الخ الآية .

ثم يقول لا يظن أحد أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد ، كيف يمكن هذا ؟ وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام .

كان يدعو الناس أن يرجعوا إلى عقيدة الرعيل الأول من السلف الصالح ، تلك العقيدة الصافية التي لم تشبها أخلاط الفرق الناشئة بعد الصدر الأول من الإسلام التي توزعت أصوله وأخطأت فهمها واتبعت ما يبثه الزنادقة والباطنيون من البدع ، وما وضعه الناقون على الإسلام من الأحاديث الكاذبة التي حورت الإسلام تحويراً شديداً ، وأبعدته عن أصوله ، ففرقت شمل هذه الأمة وأضعفت كيانهما وتضععت أركانها بالتواكل الذي جاءها من أهل الحلول والتصوف وأهل الزهد وأهل الإباحة .

وبينما كان السيد جمال الدين يدعو الناس إلى سبيل الرشاد ويهيب
بهم أن ينفذوا عن رموسهم غبار الماضى السحيق ويفيقوا من نومهم
العميق ويتمسكوا بحبل الله ويعتصموا بالتوحيد ، كان يقف بالمرصاد
لأعداء الإسلام الذين عبأهم الاستعمار فأخذوا يشنون عليه حرباً شعواء
فألف رسالة يرد بها على الدهريين تدل على منطق واضح وفكر صادق
الحكم وبما جاء فى هذه الرسالة :

« إن الدين أ كسب عقول البشر ثلاث عقائد . وأودع نفوسهم
ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .
العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى ، وأنه أشرف
المخلوقات . والثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل
مخالف له فملى ضلال باطل . والثالثة جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه
الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا
العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات
جديدة بأن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام إلى دار فسيحة الساحات
خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تلتهى مدتها .

والخصال الثلاث : الحياء ، والأمانة ، والصدق ، أما الدهريون
« الطبيعيون » فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة
وعدها أوهاما باطلة ومجعولات وضيعة ، ووجوب إزالة العقائد الثلاث
ومحو الخصال الثلاث من الإنسان ، وبنوا على هذا لاحق مللة من الملل أن
تدعى لنفسها شرفا على سائر الملل ، ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة
ولا أجدر بمزية ، وقالوا إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات وليس
من المزايا ما يرتفع به عن البهائم بل هو أحسن منها خلقة وأدنى فطرة .
وقالوا وبش القول : إن الحياء من ضعف النفس ونقصها فإذا
قويت النفوس وتم لها كمالها ، لم يغلبها الحياء فى عمل ما - كائناً ما كان -

فيجب على زعمهم أن يسعى الإنسان في معالجة هذا الضعف ومقاومته ليفوز بكمال القوة وهو قلة الحياء ، ثم قالوا وفي مقدمتهم أبيقور الدهري وأتباعه رداً على القول : إن الإنسان أشرف المخلوقات ، ما بال الإنسان معجب بنفسه مغرور بشأنه ، يظن أن السكون العظيم إنما خلق لوجوده الناقص ، ويزعم أنه أشرف المخلوقات وأنه العلة الفعالة لجميع المكونات وأن الإنسان من جنونه على زعمهم اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية ومعاهد قدسية ينقل إليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء ولذة لا يخالطها كدر ، ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف مخالفاً نظام الطبيعة العادل ، وسد في وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرّم حسه كثيراً من الحظوظ الفطرية مع أنه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا .

والصدق والأمانة وغيرها من الأمور الوضعية التي تقيد الناس بها جهلاً ولم يتقيد بها الحيوان إلى غير ذلك .

وقد أفاض السيد بتفنيد هذه المزعمات بمقدمات صادقة واضحة ، ومن ذلك : أن في الاعتقاد بالله صونا للجماعة وحفظاً لكيان المجتمع فإن الدولة لا تستطيع أن تحكم إلا بالظاهر ، ولا ترفع الحيف والظلم إلا إذا رأت ذلك بعينها ، ولكن من الذي يسيطر على الأمور التي تجري في الخفايا من الذي يردع السارق عن سرقة والقاتل عن القتل والمختلس عن الاختلاس ؟ لا شك في أنه لا يوجد رادع غير الله ، ولا وازع غير الدين فالدين ضروري للبشر ولتكوين مجتمعاتهم ، من أين للحكومة الاطلاع على خفيات الحيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ، ومستورات الغدر ؟

هب أننا أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من إزالة العقائد الثلاث والخصال الثلاث وتسنى لهم أن يبدلوا الحياء بقلة الحياء ،

والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيانة ، وصون الأعراض بالهتك .
والإباحة ، والاشتراك . فبأى نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع ؟
كان هم جمال الدين أن يرى الإسلام قويا في دولة قوية ، وكان لا يجد
حداً بين الدين والدولة ويرى أن أحدهما يكمل الآخر ، فالدين عنصر
هام من عناصر مقومات المجتمع . والدولة لن يتم لها مجتمع لا دين له .
لقد بذل جمال جهده وأنفد عمره في تحقيق هذا الرأي ، ولكن
الإسلام كان موزع الأهواء والميول فتسكت به رواسب الماضي السحيق
التي خلفتها السبئية والباطنية .

وجد في السلطان عبد الحميد جانباً من الخير فأبان له النصيح وأشار
عليه أن يجعل من ولايات امبراطوريته التي تبلغ ثلاثين ولاية خديويات
على غرار خديوية مصر ، تبقى كلها خاضعة للخلافة ، يأتمر الخديوى بأمر
السلطان ، والعساكر فيها عثمانية تسرع لتلبية الأمر بالحقاق بجيوش
السلطان ، ورعية طائعة خاضعة ، فزوى عبد الحميد وجهه وأبى ، وقال
لجمال : ماذا أبقيت أيها السيد لتخت آل عثمان ؟ « فقال جمال : يبقى جلاله
مولاي السلطان ملك أولئك الملوك ، فإذا قويت هذه الخديويات فإنه
سرعان ما تنضم إيران وأفغان والهند ويصبح الإسلام قوة عتيقة
يرهب الغرب جانبها ، وتهدأ تأثيرته على الإسلام .

ومن أجراً الآراء التي كان يثيرها طلبه استعراب الأتراك وجعل
اللغة العربية لغة الدولة ، فكان يقول : « لو أنصف الأتراك أنفسهم
لاستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله وجروا على سنن الرشيد
والمأمون على الأقل ولما كانوا أعز جانباً وأغنى مملكة في دول الأرض ،
وما كان يحز في نفسه أن الأتراك كانوا يحرون وراء تترك العرب
واستبدال اللسان العربي لسان الدين والأدب والفضائل باللسان التركي .
وكان ينبه العالم الإسلامي على أهمية مصر وموقعها ويقول :

في صون مصر في حوزة الملك الإسلامي وكشف الإنجليز عنها صون
للممالك الثمانية ، وغلق لكل بلية مهياة في المسألة الشرقية . وقال :
« وعزة الحق إن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من الهمم
وما حذرت به من سوء المصير لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم
ولرفرفت على أجدانهم ولأحدثت لأعدائهم أحلاماً من عجة ومراء مريعة
وما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت
أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا
محسوساً إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد وأقصر طيات المسافة
في الذلة والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية . هكذا كان
جمال الدين يبشر وينذر ويحض النفوس ، ويحرك الهمم ويشير إلى مواطن
الخطر ، أينما حل حلت معه فكرة العرب والإسلام ، إذا وقف في الهند
أشار إلى مواطن الخطر التي تهدد مصر ، وإذا ذهب إلى الآستانة وإلى
وجهه شطر المسجد الحرام ، وإذا ذهب إلى باريس كتب عن مصر وعن
بلاد الإسلام . جيل دمه بحب العروبة واتجه فكره إلى إيجاد أمة قوية
تحفظ هذا التراث الذي فيه العزة والمنعة . نفخ الصور في آذانها فلم تتمهل
ولم تبعث وأنى له ذلك والعظام نخرة ليس لأحد قدرة على بعثها إلا الباعث
القدير والأمل المرتقب .

ولما ترك جمال الدين مصر قال : « مصر أحب بلاد الله إلى وقد
تركها لها الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ وعزماً من الحكمة
والشهم وعلو الهمم . »

وهو قول حق فقد كان محمد عبده في الذروة من هذا الوصف شأنه
في علو الهممة شأن كل مبدع يريد بعث أمة وتكوين أجيال . أخذ محمد
عبده عليه عن الأزهر وعن معاهد الدين في أول أمره وقد استعصى عليه
التعليم في البداية ، ثم لان له في النهاية ولكن ما كان هذا العلم يوائم هذه

الهمة وبوافق ذلك الذكاء حتى بعث الله لهذه الأمة جمال الدين الأفغاني فنزل مصر فيما نزل من بلاد الشرق الأدنى ، فكان كالنيث أنبت الخائل فوق الربا فازدهرت وأثمرت . وكان الشيخ ثمرة من ثمار جمال الدين هياه فيمن هيا للنضال والإصلاح في هذا الشرق الذي تعاقبت عليه المصائب واصططحت عليه الأهواء والشرور فتركته يمج في سحابة مظلمة لا يتبين فيها الرشد من الغي — لقد كان في محمد عبده استعداد النباه ومواهب الأذكاء . جمع من علوم الأزهر ما وعى والتقى بجمال الدين فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة . فكان من امتزاج هاتين الثقافتين ثقافة ذات لون خاص فيها روح الإسلام وعزته وجرأته وإقدامه وإباؤه وإذا بالمحفوظ من القرآن والحديث صور وأشكال وأخيلة تموج بالقوة والسمو . وإذا الأدب العربي الذي تعلمه الشيخ أداة من أدوات الفصاحة والبيان تنقل هذه الصور والأشكال إلى أذهان الناس واضحة بيئة تهز المشاعر وتعطف القلوب وترشد العقل إلى الحكم الصحيح .

رأى الشيخ محمد عبده جوا من المفساد الاجتماعية والسياسية وفوضى في الأمور الدينية . فقد ساءت العقيدة ، وضعف الإيمان ، وساد الشرك وعادت عبادة الأوثان واشتغل الناس بالرقى والنذور والموالد وتعلقوا بالأرواح والأشباح وما إلى ذلك مما يضعف النفوس ويبعدها عن التوحيد ورأى في فساد العقيدة إضاعة للأخلاق فإذا يفعل ؟

لقد رأى أن هذا الضعف المنتشر والفساد الشامل يرجعان إلى جهل الناس بأصول دينهم بالقرآن والحديث ووجد أن التعليم الديني على أساس متين ركن ركين في إعادة مجد الأمة ، فليجأ إلى القرآن فاتخذة عاصماً والحديث فجعله دليلاً ودعا إلى اتباع آثار السلف الصالح ، لأن في هذا الاتباع رجوعاً إلى العقيدة السليمة من شوائب البدع في هذه الأصول التقى الشيخ محمد عبده بابن تيمية وابن عبد الوهاب ، ووجد فيهما مثابن

من أمثلة الإصلاح . سارا على نهج القرآن والسلف الصالح من الرعيل الأول في صائر الإسلام . وإن كان يختلف عنهما بسعة الأفق وسعة الثقافة بإطلاعه على الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية .

التقى بهما في توحيد الله ونبذ الخرافات والبدع ومحاربة الشرك والرجوع إلى القرآن والحديث في توجيه الناس إلى السماء ليسموا ويرتفعوا عن التبرغ بالرغام على أقدام الأصنام ، فكل شيء على هذه الأرض يمكن يطرأ عليه التغيير والضعف ، أما الإله في السماء فهو إله خالد ، لا تنطبق عليه مقاييسنا ، صفاته ليست كصفاتنا وأفعاله ليست كأفعالنا ، وما دام الأمر كذلك فهو واجب الوجود ، وما عداه داخل في حين الإمكانات ، وما يدخل في حين الإمكانات لا يستند إليه في عبادة وتوجيه وإنشاء أمم وأجيال .

صدع محمد عبده بالحق فتكأ كأت عليه الخصوم يرمونه بالزندقة والكفر لا شيء سوى أنه موحد ، ينبذ الشرك ويحطم الأصنام ، وحسبك أن تجده يرد على الوثنيين والمشبهة والمجسمة والمركبة والمشركين في سورة التوحيد أو سورة الإخلاص رداً واضح الحجة والبرهان :

« قل هو الله أحد ، : الأحد هو الواحد الذي لا كثرة في ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة ، فليس بمادى ، ولا هو من أصول متعددة غير عادية كما يزعم بعض أرباب الأديان ، من أنه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهي متعددة ، سواء أعقل ذلك أم لم يعقل ، فإن الله برىء منه ، لأن العقلاء أجمعت على أن موجد العالم وهو الله واجب الوجود ، ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وحدة الذات لأن التعدد في الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى الأجزاء فلا يكون المجموع المسمى بالله أو موجد العالم واجب الوجود ، وكذلك الأفراد نفسها لا يكون كل واحد واجب الوجود لأنه يختلف عن الآخر بمميزه ،

وذلك المميز غير ما يشتركان فيه من الوجود فيكون كل منهما مركباً والمركب غير واجب كما ذكرنا ، فلم يبق إلا أن يكون واجب الوجود واحداً . فالله أحد .

« الله الصمد » من الكلمات الجامعة التي تملأ النفس بما قصد بها دون جهد ولا تعب فهذه الآية تقول لك إن حاجة ما في الوجود لا تتوجه إلى غيره وأن محتاجاً لا يجوز أن يتوجه في طلب حاجته إلى سواه فقد أفادتنا أن جميع المسببات تلتهمى إليه ، وجميع ما يسرى فيها من الوجود فهو من إيجاده ، وأن صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يحصل مسبباً من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ما أمره الله بالبحث والنظر والتدبير في مخلوقاته ، ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسببات ، ثم يذهب بها حتى يسندهما إلى مبدئها وهو الأمر الإلهي ، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه عمل الكسب والإرادة والقوى الممنوحة البشرية ، أما ما هو وراء ذلك مما لا دخل الإرادة فيه فعلى صاحب الحاجة ألا يتوجه في المعونة عليها إلا بعد الأخذ بالأسباب إلى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملاً .

وقوله الصمد يشعر بأنه الذي ينهى الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع ، وهو في ذلك يدعو إلى ما يخالف عقيدة مشركي العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وكثير من أهل الأديان الأخرى يعتقدون أن لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم في نيل مبتغاهم فيلجئون إليهم أحياء ، أو أمواتاً ، ويقومون بين أيديهم ، أو عند قبورهم خاشعين خاضعين ، كما يخشون الله بل أشد خشية ، ثم هو الصمد في تحديد الحدود العامة للأعمال ووضع أصول الشرائع فلا بد أن يرد إلى ما أنزل جميع ما يقع من الاختلاف فيه وليس من المباح أن يرجع إلى قول غيره متى تطق صريح كتابه بخلافه ، وعلى الناس أن يرجعوا إلى الكتاب ،

فإذا لم يكونوا عارفين به رجعوا إلى المعارف وطالبوه بالدليل منه وعليهم أن يثبتوا بأن يعرفوا منه أصول ما يعتقدون وما يعملون فإن لم يفعلوا اختلف الآراء وحجبت المذاهب كتاب الله فدرس معناه وذهبت الحكمة من إنزاله عبثاً لتعلق الناس بقول غير المعصوم وعمائم عن هدى المعصوم فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة وإنما يعملون بما يقول لهم زعمائهم الذين لا يجدون دليلاً على امتيازهم بالزعامة فيكونون مستمسكين بما لم ينزل به الله سلطاناً فيسقطون في مهاوى الشقاء الدنيوى والأخروى .

في تفسير هذه السورة تلتقى آراء محمد عبده وابن تيمية وابن عبد الوهاب في وجوب الرجوع إلى توحيد الله والسمو بالمسلمين عن مواطن الشرك وحضهم على التمسك بكتاب الله الذى هو مصدر الشريعة الإسلامية ومصدر العزة والقوة . لم يمكن الزم محمد عبده وجمال الدين أن يثبتوا رسالتهم في نشر مبادئهم لإصلاح النفوس فقد دهمتهم قوة الاستعمار التى أخذت تمتد أيديها مد الأخطبوط خراطيمه ، فدهشا وأخذوا تارة يوجهان الأنفس إلى منابت العزة والقوة في عقيدة التوحيد وتطهير النفوس ، وأخرى في حثها على مقاومة المستعمر ودحض دسائسه . واتخذ من جريدة العروة الوثقى ميداناً لعملهما : يردان على المستعمر مكايده ، ويردان على هادى عقيدة التوحيد ومهاجمى الإسلام ، ويردان على مشبى الهمم . وقد أخذ « القضاء والقدر » مكاناً كبيراً في جدلها ، إنها أرادا أن ينتزعا من صدور المخطئين فهمه سوء الظنهم ، وأن القدر ليس كما يعتقد أصحاب الجبر . إن القدر الذى يعتقد به المسلمون قد أمرنا به في شطر العمل من حياتنا ، لا في شطر البطالة والكسل . ولم يأمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم . إن الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك

التي ترجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مراثي النور ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المسكاره ، ومقارعة الأهوال ويحملها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعثر عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن نظرة الحياة كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد أن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر بما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قول الحق « الذين قال لهم الناس ، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

هكذا أخذوا يصححان خطأ المسلمين في فهم عقيدتهم ، ويبعثان في نفوسهم ذكريات أعماد السلف الأواين الذين فتحو العالم ونشروا الإخاء والعدالة كان لهذا الاتفاق العجيب بين هاتين الشخصيتين صيحة داوية في الشرق العربي بلغة عربية متينة تستند على القرآن وعلى تعليم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم التي لم تشبها شائبة البدع والخرافات ، وكانا في حديثهما وخطبهما وكتابتهما حرباً على هذه البدع ووقفاً لهذا الشرق الذي أخذت مطامع الأقوياء تمتد إليه فتلتقطه من أطرافه وأهله نيام في غفلة عن عين الدهر اليقظ التي تفتحت للغرب ، لقد نشر آراءهما في جريدتهما التي أجملا مبادئها فيما يأتي :

١ — أن تكون خدمة للشرق في بيان واجباته التي كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه ، وتوضيح الطريق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتباس من غوائل ما هو آت .

٢ — تبحث في أصول الأسباب والعلل التي قصرت بهم إلى جانب ذلك التفريط فوقعوا في هذه الخيرة الرابعة التي ضل بها المرشد وعميت فيها عليهم السبل فلا يدرون من أين تفجعهم الطوارق المزعجة .

٣ — تكشف الغطاء عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين فضلوا مسالك الرشد ، وتزج الوسوس التي أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللهم وشفاء أدوائهم .

٤ — تحاول إشراب الأفهام سهولة الأمر والنجاح في المقاصد إذا عقدت العزم .

٥ — وتبين للناس أن هذا النجاح مقصود بالتمسك بالأصول التي كان عليها أسلافنا التي هي كفيلة في رد العزة والقوة لنا وقد تمسك بها بعض الدول الأجنبية فقويت وعزت .

٦ — وتنبيه على أن الروابط بين الدول يجب أن تكون على أساس التكافؤ بالقوى وهذا التكافؤ هو الضامن لدوام العلاقات ، وإذا فقد التكافؤ فإن الرابطة تكون وسيلة لا ابتلاع القوى الضعيف .

٧ — تخير أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة ما يتهمهم به أعداؤهم وتدافع عنهم وتبين لهم ما يدور حولهم من الحوادث الجسام في السياسة .

٨ — تراعى تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ونصر السياسات القديمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

٩ — تتخذ هذه الجريدة مبدأ الصراحة والحق وتسير على صراط مستقيم وترسل إلى من تعرفه ومن يريد ما يجازاً ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقر. حسبك أن تقرأ طرفاً من تفسير القرآن ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده وتطلع على العروة الوثقى التي كان يحررها مع شيخه وإمامه السيد جمال الدين الأفغانى وتقرأ رسالة الدهريين إلى ألفها جمال ونقلها إلى العربية تليذه الشيخ محمد عبده .

لا شك في أنك تجد روحاً من نفحة سماوية في شخصيتين أيقظتا نيام العرب والشرق الإسلامى ونبهتا على خطر يحرق به ونددتا بالبدع والخرافات التي ضغفت بها النفوس وضممرت الجسوم فذلت الرقاب التي نسيت قول الله تعالى في كتابه العزيز :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون » .

عبد الرحمن السكواكي

نشأ عبد الرحمن السكواكي في مدينة حلب في بيت دين وحسب ، أما الحسب فإن أسرته تنحصر فيها نقابة الأشراف لهذه المدينة وهي مكانة لا يناطها إلا من له وشيعة نسب بأهل بيت النبوة وأما الدين فإنه تخرج في مدرسة السكواكية التي سميت باسم هذه الأسرة ، درس علوم الدين وتفقه وتعلم التفسير وحفظ الحديث وبرع في اللغة وأضاف إلى إتقان الفصحى إجادة الفارسية والتركية ونشأ في بيت أبيه على العزة والكرامة والطبع المذهب حتى إذا شب واكتمل دخل ميدان الحياة يزينه علم وأدب وحسب وعزة تتمشى إلى الأبوة والجدود ، فكان مثال أخيه المسلم في صدر الإسلام عف اللسان ، صريح القول ، ثابت الجنان لا يخشى في الحق لومة لائم ، تفتحت له أبواب الرزق في وظائف الدولة تارة وأخرى

في التجارة والكسب الحلال ، وطوراً بقلبه وآرائه يبثها في جريدة ينشرها
وعصيفة يكتبها ، ورجل مثل هذا في مثل ذلك الزمن لا يعدم الحساد ،
ترقبه أعين الناس والسلطة تخشى على نفسها أى نايضة يدبغ في هذه الغفلة
الراقدة في مطاوي الزمن أن يكدر عليها صفوها ، أو يهن كتفها وهي
تمشي سادرة في غلوائها ، فأخذت تطارده وتضيق عليه منافذ الحرية
والرزق حتى اتهم زوراً وعدواناً وأدخلوه السجن وحاكموه فبرأه الله .

ولما وجد بلده جميعاً تتأجج بالقسوة والبطش والخوف ، هجرها
وضرب في أرض الله يفتش عن منأى للسكريم من الأذى ، فذهب إلى
زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربها وأوغل في أواسط
الجزيرة العربية وقطع صحراء الدهناء حتى وصل اليمن على ظهور الجمال
ثم عاد فالتقى عصا التسيار بمصر فكانت هذه الرحلات ميداناً لإحكام
التجارب وتقوية الملاحظة ، اطالع فيها على حال المسلمين في هذا الشرق ،
وأبصر ما هم عليه من انهيار في نواحي الحياة جميعها ، فانكب يدرس
ويبحث ويعمل ويستنتج ويحكم فكان صادق الحكم سديد المنطق .

بدأ حياته مثلها بدأها زميلاه : جمال الدين ومحمد عبده ، القرآن
مصدر أفكاره والعزة وحرية الرأي هدفه ، والرجوع إلى آثار الأولين
والتخلص من البدع دعوته .

وعندى أنه أوسع أفقاً منهما معاً ، وإن كان مقلاً موجزاً وكانا
مكثرين ، وهو على إقلاله لم يقل عنهما شأناً في التأثير . ورب جملة فيها
معنى خطبة وعبرة فيها أثر مقالة .

لقد بث محمد عبده آراءه في تفسير القرآن وتدريسه وكتاب التوحيد
والعروة الوثقى ، وبث جمال الدين آراءه في العروة الوثقى وكتاب الرد
على الدهريين ، وبعض الخطب ونصائح الحكم التي ورد ذكرها في
مذكراته ، أما الكواكب فقد قارع الاستبداد بكتابه « طبائع الاستبداد »

وهو يعلم قوة الخصم في هذا القراع ، فلبث ثابت الجنان نصيح اللسان
يهز قلبه كما يهز السهمي المشرقي لقد خضع الناس إلى العثمانيين الأتراك
باسم الخلافة ، وخذلوا إلى السكينة والسكسل وتركوا الأمر للطبيعة
تطعمهم وتسقيهم ، حتى انقلبت جنان بلادهم إلى صحارى مقفرة ، وشجاع
الجهل والفقر والمرض والذلة ، واستغل الحاكمون بأمرهم هذه الحال
فاقتعدوا مقعد الجبارة وتسموا بالخاقان الأعظم ، وحامى الحرمين وسلطان
البرين والبحرين إلى غير ذلك من الألقاب التي تجفل منها نفوس الضعفاء
وتعنو لها جباه الأذلة ، وطفقوا يتصرفون في شؤون الرعية كما يشاءون
لأراد لأحكامهم ولا وازع لسلطانهم ، لا يتقيدون بنظام ولا يشرع ،
وإذا ركب الراعي رأسه ويسد على الناس أنفاس الحرية ، وخنق إرادتهم
استعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعفاء شأنه ، فذلت نفوسهم ، وإذا
ذلت النفوس ركبها التزلف والملتق ، والعبودية وملك التآله عقل الحاكم فيرى
نفسه السيد المطاع ويرى في الرعية المسود الخاضع . في هذه الغمرة
من الفساد بين الراعي والرعية تطلع رؤوس البدع وتحل الأباطيل
مكان الحقائق وتجد الخرافات طريقها إلى قلوب الضعفاء لتأوى إليها ،
وتسكنها وتجعل عليها غشاوة فلا تعقل القلوب ، ولا تسمع الآذان ،
ولا تبصر العيون إلا من رحم ربك ، وإذا وصلت النفوس إلى هذا
الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت موازين الحياة وأصبح
المرء خائفا على عرضه وماله ودمه لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدري متى
يسلب ماله ويهتك عرضه ، وإذا خافت النفوس صغرت ، وإذا صغرت
أصبحت تمثل الدعة والهدوء ، وتنفر من الطموح والسمو وفي كل ذلك
معنى انهيار الأمة .

يمثل هذه المعاني أخذ الكواكب يشرح في كتابه « طبائع الاستبداد »
فتايج الاستبداد ويعرف المستبد والمستبد به وعلى مثل هذا وضع كتابه

« أم القرى » استعرض فيه أحوال المسلمين وما وصلوا إليه وطلع على الناس بآراء صائبة وحضهم أن يخرجوا على هذا الفساد ويربئوا بأنفسهم عن هذه الذلة .

وجد السكواكي أن انهيار الأمة العربية ما كان إلا لتهاونها في الدين وتركها ثغراً في حياتها صرت منها أباطيل المبتدعة فبعثت هذه بهم عن أصول الدين الحقيقية ولو كان المؤمنون يقرءون القرآن بامعان وتدبر لما ذلوا في القرآن معاني العزة ومعاني القوة .

لهذا أخذ السكواكي يوجه الناس إلى عقيدة التوحيد « لا نعبد إلا الله » ونبتدع البدع والخرافات والتقليد الأعشى والرجوع إلى القرآن والأخذ بآثار السلف الصالح من هذه الأمة ، ابتدع كتابه « أم القرى » كما ذكرنا آنفاً على لسان ممثلين للبلاد الإسلامية جمعها وجعلهم على هيئة مؤتمر تعرض فيه أحوال المسلمين وأسباب فتورهم وانهيار قواهم وجعل مكة « أم القرى » مركزاً لهذا المؤتمر الذي كان فيه المؤمن الشامى والقدسى والإسكندري والمصري واليمنى والبصرى والنجدى والمدنى والمسكى والتونسي والفاسي والإنكليزي والرومي والكردي والتبريزي والتاتاري والقازاني والتركي والأفغانى والهندي والسندى والصيني .

وجعل شعار المؤتمرين « لا نعبد إلا الله » وجعل جدول أعمال المؤتمر البحث في :

- ١ — موضع الداء .
- ٢ — أعراض الداء .
- ٣ — جراثيم الداء .
- ٤ — ماهو الداء ؟
- ٥ — ماهى وسائل استعمال الدواء ؟
- ٦ — ماهى الإسلامية ؟

٧ — كيف يكون التدين بالإسلامية ؟

٨ — ما هو الشرك الخفي ؟

٩ — كيف تقاوم البدع ؟

١٠ — قانون تأسيس الجمعيات .

وبعد أن أخذ المؤتمر مكانهم ، وتجادلوا في شؤون الأمم المنحطة قال الشامي :

« إنني أرى أن منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطنياً قنطرة ظاهراً ، والحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق وإماتة المطالب النفسية بحب المجد والرياسة ، والتباعد عن الزينة والمفاخر والإقدام على عظام الأمور وكالتغيب في أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت وكفى بهذه الأصول مفترات مخدرات مشبكات معطلات لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع .

ويرى القدسي : أن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية حيث كانت « ديمقراطية » تماماً فصارت بعد الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية ثم صارت أشبه بالمطلقة .

وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الأخذ بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية فاتخذ العمال السياسيون ولا سيما المتطرفون منهم هذا التخالف في الأحكام وسائل للإنقسام والاستقلال السياسي ، فلشأ عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهباً متعادلة سياسة متكافئة على الدوام ، وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع به أعداؤها .

وقال التونسي : إن بلادنا من تأصل الجهل في غالب أمرائنا المترفين

الأخسر من أعمال الذين ضلوا وأضلوا سواء السبيل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . إنهم يتشدقون بالإصلاح السياسى مع أنهم وأيم الحق يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ؛ يظهرون الرغبة فى الإصلاح ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد دينهم ودنياهم وهدم مباني مجدهم وإذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لا يرجى شفاؤه .

وقال المولى الرومى وهو من أهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلطف بكلمات : حرية وجمعية ووطنى ، ومراد ورشاد ، وخلافة وخلع ومبعوث ، ومعتوه ومختل إلى نحو ذلك من الألفاظ التى تمس سياسة الوهم .

قال هذا الرومى : عندى أن البلية فقدنا الحرية ، وما أدرانا ما الحرية هى ما حرمتنا معناه حتى نسيناه ، وحرمت علينا لفظه حتى استوحشناه ، وقد عرف الحرية من عرفها : بأن يكون الإنسان مختاراً فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم . ومن فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة فى المطالبة ، وبذل النصيحة ، ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار أو مختال ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض ، والأمن على العلم واستثماره ، فالحرية هى روح الدين وينسب إلى حسان ابن ثابت الشاعر الصحابى (رضى الله عنه) قوله :

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبيل بيننا وهضاب

وقال المجتهد التبريزى : يالوح لى أن انحطاطنا من أنفسنا إذ أننا كنا خير أمة أخرجت للناس نعبد الله وحده ، أى نخضع ونتذل له فقط ونطيع من أطاعه ما دام مطيعاً له ، نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ،

أمرنا شورى بيننا تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وأجاب المرشد الفاسي : إننا كننا على عهد السلف الصالح شريعتنا سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفته لكل مسلم ومسلمة . . . ثم دخل بيننا أقوام ذور بأس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب وحصرُوا اهتمامهم في الجباية وآلتها هي الجندية فقط فبطل الاحتساب وبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طبعاً ، فهذا يصلح أن يكون سبباً من جملة الأسباب وقد يضاف إليه شركهم الخفي الذي لا يشعرون به .

وقال المحقق المدني : إن فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان سبباً للفتور العام ، بل لا بد لذلك من سبب أعم وأهم ثم قال أما أنا فالذي يحول في فكري أن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله ، وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قياسهم في الأمة مقام الأنبياء في الهداية إلى خير الدنيا والآخرة . ولكن بعض ضعيفي العلم وجدوا هذه المنزلة فوق طاقتهم فتحيوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء العظام بالإغراب في الدين وسلكوا مسلك الزاهدين ، ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف كما يلجأ فاقده المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث ، فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم فيفسرون مثلاً البسملة أو الباء منها بسفر كبير تفسيراً مملوءاً بلفظ لا معنى له ، أو بحكم لا برهان عليه ، ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها وعلوم لدنيات ابتدعوها وتسئم مقامات اخترعوها ووضع أحكام نقضوها وترتيب فريات زخرفوها .

وهكذا يستمر السيد الكواكي في نقده المجتمع الإسلامي حتى يتم في هذا النقد اثني عشر اجتماعاً يعقدها ويتخيل المتكلمين فيها الذين يفتشون عن الداء ليضعوا عليه الدواء ، ويلخص أقوالهم جميعاً بموجب من القول في جمل منها ما يجعلها أصولاً ومنها فروعاً ، وإنا لذاكرون طرفاً مهماً منها ويحيلون القارئ على كتابه أم القرى الذي بسط فيه الكلام قال :

يستفاد من مذاكرات جمعيتنا المباركة أن هذا الفتور المبحوث فيه ناشئ عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه لا عن سبب واحد أو أسباب قلائل تمكن مقاومتها بسهولة ، وهذه الأسباب منها ما هو أصول ومنها ما هو فروع لها حكم الأصول ، وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع وهي أسباب دينية وأسباب سياسية وأسباب أخلاقية ، وإن أقرأ عليكم خلاصتها من جدول الفهرست الذي استخرجته من مباحث الجمعية رامزاً للأصول منها بحرف الألف وللشروع منها بحرف الفاء وهي :

(١) الأسباب الدينية

من الأصول

- ١ — تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمة .
- ٢ — تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية .
- ٣ — الاسترسال للتخالف والتفريق في الدين .
- ٤ — الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .
- ٥ — تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافاً للسلف .
- ٦ — إدخال العلماء المدلسين والمقابرية على العامة كثيراً من الأوهام .
- ٧ — إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعاً مضرة .

٨ — إيهام الدجالين والمداحين أن في الدين أموراً سرية وأن العلم حجاب .

٩ — اعتقاد منافاة العلوم الحكيمة والعقلية للدين .

١٠ — الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع في هذا الباب

١١ — تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لهواً ولعباً .

١٢ — إفساد الدين بتفنن المداحين بمزيدات ومتركات وتأويلات .

١٣ — التعصب للمذاهب والآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسالك السلف .

١٤ — العناد على نبذ الحرية الدينية جهلاً بميزتها .

١٥ — تطرق الشرك الخفي أو الصريح إلى عقائد العامة .

(ب) الأسباب السياسية العامة

من الأصول

١ — السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ — حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجنودية فقط .

٣ — اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ — قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها الفقراء .

٥ — إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم للمتملقين والأشرار .

ومن الفروع في هذا النوع

٦ — فقد قوة الرأي العام بالحجر والتفريق .

٧ — مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٨ — فقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .

٩ — ميل الأمراء طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين .

(ح) الأسباب الأخلاقية

من الأصول

١ — الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه .

٢ — انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية .

٣ — التباعد فى المكاشفات والمفاوضات فى الشؤون العامة .

٤ — فقد التناصح وترك البغض فى الله .

٥ — غلبة التخلق بالتلق تزلفاً وصغاراً .

٦ — فقد التربية الدينية والأخلاقية .

وأضاف السيد الكواكبى إلى تلك الأسباب أسباباً أخرى منبعثة عن الخور فى سياسة الدولة العثمانية وإدارتها ومظهر ذلك كما يعتقد الكواكبى فى توحيد قوانين الإدارة والعضوية مع اختلاف طبائع أطراف المملكة وتباين أهلها فى الجنس والعادات ، زد على ذلك تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء فى الأحوال المتماثلة .

ويقول الكواكبى إن من أسباب الخور فى الدولة تمسكها بأصول الإدارة المركزية مع ارتباك هذه الإدارة بما يصيبها من عدم الالتفات إلى توحيد الأخلاق والمسالك فى الوزراء والولاة والقواد ، واضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الأجناس والأقوام الموجودين فى المملكة .

زد على ذلك أن الدولة درجت على قاعدة اختلاف الجنسين بين ولاة الأقاليم وأهلها لى تأمن غائلة الاتفاق عليها ، كذلك درجت الدولة على التمييز الفاحش بين أجناس الرعية فى الغنم والغرم فى المناصب والارتزاق من بيت المال ، وقد أصاب العرب غرم كبير مع أنهم يكونون ثلثى رعيتهما .

وعما زاد في ضعف الدولة تساهلها في انتخاب العمال والمأمورين والإكثار منهم بغير لزوم ، وإنما يقصد في انتخابهم إعاشة العشيرة والمحاسيب والمتملقين . ولقد كانت تتلافى ضعفها بالضغط على الأفكار المتطبعة لكيلا تسمو وتنمو وتتطلع على مجارى الإدارة في محاسنها ومعائبها ، مع أن مثل هذا الضغط لا يؤثر على النمو الطبيعي ، وإنما هو عبث محض لا يتأتى منه إلا الإغراء والتحفز والحقد على الإدارة .

أما في إدارة بيت المال فكانت مطلقة اليد تصرف دون مراقبة وتلشر جزافاً بغير موازنة ، وتسرف بلا عتاب وتتللف بغير حساب حتى صارت المملكة مديونة للأجانب بديون ثقيلة انهمكت كاهل المملكة .

وفي إدارة المصالح المهمة السياسية ما كانت تستشير ولا تقبل المنافسة ولو كانت هذه الإدارة مشهودة المضرة في كل حركة وسكون وكان دأبها في تغطية هذه المعاييب المداراة واسكات المطالعين على المعاييب حذراً من أن ينفثوا ما في الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور ، والعامة من إذا علموا قالوا : وإذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى . وأما إدارة السياسة الخارجية فكانت تديرها بالترلف والإرضاء والمحابة بالحقوق والرشوة بالامتيازات وبذل النقود للجيران بمقابلة تعاميمهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية وصبرهم على الروائح المنتنة الإدارية .

ولقد أوضح الكواكب اتساع الهوة بين العرب والترك وضرب أمثلة من العبارات والأسماء التي كان الأتراك يهزون العرب بها .

وبعد ذكر هذه الأسباب والعلل في فتور العالم الإسلامي التي أوردتها على لسان جمعية المتخيلة طلع بهذا الرأي فقال :

وحيث كانت الجمعية لا يعينها غير النهضة الدينية رأت من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها وأهلها ومن يجاريهم وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً وذلك لأجل رفع

التمصب السياسي أو الجنسي ، ولأجل إيضاح أسباب الجمعية للعرب فنقول :
١ — الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي فيها الكعبة المعظمة ، وهي
أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى
آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً ، وهي أسلم الأقاليم من الأخطا جندسية
وأديانا ، ومذاهب ، وأبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب وأفضل الأراضي
لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها
الطبيعي وعرب الجزيرة هم ومن يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات
ودجلة والنازحين إلى أفريقيا مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور
الدين فيهم .

وعرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم
الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم وهم أعلم المسلمين بقواعد الدين ، لأنهم
أعرفهم فيه ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان .

وعرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين وتأييده
والفخار به خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز
واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا ولا يزال الدين عندهم
خفيفاً سلفياً بعيداً عن التشويش والتشديد وهم أقوى المسلمين عصبية
وأشدّهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية ، وأمرؤهم جامعون بين
شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم ، وهم أقدم الأمم مدنية
مهذبة بدليل سعة لغتهم وسمو حكمتهم وأدبياتهم وأقدر المسلمين على تحمل
قشوف المعيشة في سبيل مقاصدهم وأنشطهم على التغرب والسيارات وذلك
لبعدهم عن الترف المذل أهله ، وهم أحفظ الأقوام على جندسيتهم
وعاداتهم فهم يخاطون ولا يختلطون .

وعرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال

وإباء الضيم ومن ذلك عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين والعرب ،
عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم
من أن تموت .

وهي اللغة العمومية بين المسلمين كافة البالغ عددهم ٣٠٠ مليون وهي
اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين . والعرب أقدم
الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية
وأعرفها في أصول الشورى في الشؤون العمومية ، وأهدى الأمم لأصول
المعيشة الاشتراكية وأحرصها على احترام العهود عزة واحترام الذمة
إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة ، والعرب
أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين ، وقدوة للمسلمين حيث
كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً .
فهذه الأسباب التي جعلت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة
الوحيدة لجمع الكلية الدينية بل الكلمة الشرقية .

وهكذا يستنهض الكواكب بنى قومه يذكرهم بأبجادهم ومآثرهم
ويشرح خصائصهم ، وصفاتهم الكامنة فيهم ، ويبين لهم أن هذه الصفات
إذا عادت للوجود كافية أن تعيد للأمة قوتها وترجع إليها سلطانها .
وأن الأمة العربية فيها من عناصر القوة ما يؤهلها أن تنزع العالم
الإسلامي مرة أخرى .